

إشكاليات القراءة التأويلية للنص الديني المقدس في التراث الغربي: قراءة في جذور الهرمينوطيقا الدينية

The Problematics of The Hermeneutic of The Sacred Religious Texts in the western tradition: a reading into the roots of religious Hermeneutics.

هشام قدور

جامعة أمحمد بوقرة، بومرداس، الجزائر

h.kaddour@univ-boumerdes.dz

تاريخ النشر: 2024/04/17

تاريخ القبول: 2024/04/02

تاريخ الإرسال: 2024/02/24

الملخص:

يسلط هذا البحث الضوء على الآليات التي تم من خلالها إنجاز القراءة التأويلية للنصوص المقدسة في التراث الغربي، ونقصد بذلك التراث اليهودي المسيحي، كون هذه الآليات هي التي شكلت في وقت لاحق نظرية التأويل الحديثة بعد أن قام شلايرماخر بإخراجها من دوائر اللاهوت إلى العلوم الإنسانية. لذلك فإن إشكالية هذا البحث تتناول جذور نظرية التأويل في الفكر الغربي داخل الدوائر اللاهوتية خلال القرون الأولى للمسيحية، من خلال تحليل البنية التي تمتاز بها النصوص المقدسة وطبيعة العلاقة التي تربط بينها وكذا تحليل العلاقة بين هذه النصوص والتراث الإنساني السابق عليها، بالإضافة إلى تحليل الأثر الذي أحدثته الفكر اليوناني على الاتجاهات التأويلية في المسيحية والتي أنتجت لنا اتجاهين كبيرين الأول اتجاه حرفي يهتم بقراءة ظاهر النص وتفسير دلالاته الحرفية، والاتجاه الآخر مجازي رمزي يرى بأن كل الكتابة المقدسة تحيل إلى معان تفوق الدلالة الحرفية لها. ليخلص في الأخير إلى معاني الكتابة الأربعة وتحديد قانون الإيمان.

الكلمات المفتاحية:

التأويلية، الهرمينوطيقا، النص المقدس، التيبولوجي، الألفغورية.

Abstract:

This article focuses on the mechanisms through which the hermeneutical reading of sacred texts was accomplished in the Western tradition, by which we mean the Judeo-Christian tradition, since these mechanisms were what later formed the modern theory of interpretation after Schleiermacher took it out of the circles of theology into the human sciences. Therefore, the subject of this research addresses the roots of the theory of interpretation in Western thought within theological circles during the first centuries of Christianity, through analyzing the structure that characterizes the sacred texts and the nature of the relationship that links them, as well as analyzing the relationship between these texts and the human tradition that preceded them, in addition to analyzing the impact that Greek thought influenced the interpretive movements in Christianity, which brought forth two major forms of thinking: the first a literal approach concerned with reading the surface of the text and interpreting its literal meaning, and the second a metaphorical, symbolic approach that believes that all sacred writings refers to meanings that exceed their literal meanings. Finally, this article concludes with the four meanings of writing and defining the law of faith.

Keywords:

Hermeneutics, Interpretation, Sacred text, Typology, Allegory.

1. مقدمة:

ترتبط التأويلية أو الهرمينوطيقا* بالآليات المتعلقة بقراءة وفهم النص الديني، ففي رحم اللاهوت المسيحي نشأت وتطورت، ورغم أن المصطلح يعود في جذوره إلى الإغريق القدامى، إلا أن تطوره وازدهاره الفعلي تم في الأوساط اللاهوتية المسيحية خاصة خلال القرون الوسطى، حين بدأت بالظهور أولى الإشكاليات العقائدية المتعلقة بطبيعة السيد المسيح حيث جرى نقاش حاد في دوائر الإيمان المسيحي حول مسألة ألوهية المسيح وقيامته، إلى جانب النقاش بين المسيحيين واليهود الذين أنكروا من الأساس بعثة المسيح ونبوءته وطبيعته وبالطبع فقد كان التأويل هو الميدان الذي يحاول كل طرف أن يثبت من خلاله صحة وجهات نظره، هذا بالإضافة إلى الوسط الثقافي الوثني المشبع بتعاليم الفلسفة الإغريقية الذي ظهرت فيه المسيحية، كما لعب التناقض بين نصوص العهد الجديد والعهد القديم بالإضافة إلى الغموض الذي يعتري النصوص في أحيان كثيرة دورا هاما في تبلور مصطلح الهرمينوطيقا ليدل على مجموع القواعد والقوانين التي يجب على مفسر الكتاب المقدس أن يتبعها من أجل الحصول على المعنى، ولتصبح الهرمينوطيقا مشروعا فكريا يدل على فن تأويل وترجمة الكتاب المقدس بدقة وقد أداره آباء الكنيسة بوعي منهجي دقيق -كما يعبر عن ذلك غادامير. انتقلت الهرمينوطيقا مع المسيحية إلى طور جديد مختلف تماما عما كانت عليه عند الإغريق، وهو انتقال مساير للحركية التي عرفها العالم إذ خطا الفكر الديني الإنساني خطوة عظيمة وذلك بالانتقال من الدين القائم على تعدد الآلهة يمثل فيه هرمس رسول الآلهة إلى البشر الذي يقوم بترجمة الكلام الإلهي إلى اللغة البشرية، إلى الدين ذي الأصل السماوي، ذو إله متعال واحد وفيه لعب مؤولو النصوص المقدسة الدور الذي لعبه هرمس ذو الطبيعة الأسطورية من محاولة تفسير الكلام الإلهي ونقله إلى البشر وفق آلية تسمح بالإجابة على مختلف التساؤلات التي قد يطرحها مجموع المؤمنين والمشككين بالرسالة السماوية، وللإشارة فإن لقب هرمس قد أطلق على بولس الرسول باعتباره المفسر والشارح للعهد الجديد وهي القصة التي يذكرها سفر أعمال الرسل.

يحاول هذا المقال أن يجيب عن الإشكالية الآتية: ما هي أهم الاتجاهات التي اهتمت بقراءة وتأويل الكتاب المقدس في التراث اليهودي المسيحي؟ وما هي أهم الخصائص التي يتمتع بها النص المقدس المسيحي والتي حددت تبلور الآليات التأويلية له؟ فإشكالية هذا المقال تهتم بالآليات التي اعتمدها الفكر اللاهوتي المسيحي لقراءة وفهم نصوص الكتابة المقدسة خلال القرون الأولى التي رافقت ظهور وتشكل النصوص الديانة المسيحية وبداية تبلور الفكر اللاهوتي المسيحي، والآليات التي حاول بواسطتها علماء اللاهوت وآباء الكنيسة الوصول إلى المعنى الموضوعي في النص المقدس، وذلك بالأخذ بعين الاعتبار الأثر الذي أحدثه الفكر اليوناني على عملية القراءة والفهم، فجزور الهرمينوطيقا الدينية في التراث الغربي ترتبط ارتباطا وثيقا بالإشكاليات التأويلية التي واجهها الآباء المؤسسون والتي تتعلق أساسا بالبنية المعقدة للنص المقدس، وأثر الثقافة الهيلينية (اليونانية القديمة أو الإغريقية) على النصوص المقدسة وعلى اتجاهات فهم هذه النصوص، ثم الحلول التي تم تقديمها من أجل مواجهة فوضى القراءة.

2. بنية النص المقدس اليهودي-المسيحي:

تُشكّل البنية الخاصة التي تمتاز بها نصوص العهدين القديم والجديد إضافة إلى طبيعة العلاقة التي تربط بينهما أهم القضايا الهرمينوطيقية في التراث الغربي، إذ انشغل بال آباء الكنيسة الأوائل بمسألة الكيفية التي يُقرأ بها العهد القديم في ضوء منطلقات العقيدة المسيحية الجديدة من مجيء المسيح وموته وقيامته وصعوده وقضايا ألوهيته، خاصة وأن المسيح نفسه يقر بقبوله للعهد القديم ويجعل رسالته تنمّة لما جاء من تعاليم فيه، لكن المسيحية فرضت واقعا جديدا ميزته بدرجة أولى إعادة النظر في تعاليم العهد القديم وإعادة قراءته من جديد بالإضافة إلى الانفتاح على غير اليهود ومن خلال هذا تتجلى طبيعة العلاقة بين العهدين من حيث ضرورة الوقوف على تعاليمه من جهة وضرورة تجاوزها من جهة أخرى وهو ما ظهر في موقف بولس الرسول** منه «حيث قَبِلَ العهد القديم وتَمَسَّكَ به ككتاب الله واعتبره "المكتوب" الذي يجب تقديسه، ولكنه مع ذلك فسره في ضوء العهد الجديد تفسيراً حراً»¹، ويرى بول ريكور بأنه في خضم هذه العلاقة تكوّن المجاز بمفهومه الفيلوني ذي الأصول الرواقية الذي يسمح بإحياء معنى النص وإعادة بعثه من جديد، وهو ما يجعل العلاقة بين

العهدين علاقة هرمينوطيقية، يقول: «في الأصل، لا يوجد، بحصر المعنى، عهدان، وكتابتان، ولكن توجد كتابة وحدث»²، هذا القول الذي أدلى به بول ريكور يدل على وجود مرحلتين في العلاقة بين الله والبشر، فالمرحلة الأولى تمثل العهد القديم الذي هو عبارة عن مجموعة من الأحداث التي وقعت في الماضي وتم تثبيتها بالكتابة لاحقاً، أما المرحلة الثانية فتتعلق من الحدث المتمثل في الإعلان الذي جاء به المسيح والذي لا يلغي العهد القديم بل ما يجعله هو وكل ما يحيط به من قراءات وتفسيرات وتعليقات يظهر وكأنه تراث قديم تجاوزه الزمن، فالعهد الجديد جاء ليتجاوز حرفية المعاني في العهد القديم دون أن يلغيها، ففي جوهر الرسالة الدينية لا توجد سوى كتابة واحدة وعهد واحد وفي ذلك إشارة إلى الاتساق والوحدة الجوهرية في الرسالة الإلهية عبر التاريخ، وعلى هذا فإن العهد الجديد يعيد تأويل وقراءة العهد القديم ببعث المعنى الروحي المجازي المتضمن داخل عبارات العهد القديم، وهو ما يخلق دائرة هرمينوطيقية تصبح خلالها عملية قراءة العهد القديم تتم على ضوء الأحداث التي جاءت بعده وهي نفسها الأحداث التي بشر بها (إعلان المسيح) وأن قراءتها لا بد أن تتم وفق ما ورد في العهد القديم، ومن خلال هذا يستنتج بول ريكور بأن «الحدث المسيحي موجود في علاقة هرمينوطيقية مع مجموع الكتابة اليهودية، وهو، بهذا المعنى يؤولها. وهكذا قبل أن يكون هو ذاته للتأويل فإنه مؤولٌ بالنسبة للكتابة السابقة»³، وبهذا يصبح العهد الجديد بما يتضمنه من قراءات وتعليقات على العهد القديم عملاً تأويلياً يتجاوز المعاني الحرفية له، فالأحداث المذكورة في العهد الجديد ليست مجرد قصص تحتاج إلى التأويل، بل تقدم بحد ذاتها مفتاحاً تأويلياً جديداً للنصوص الموجودة في العهد القديم، وتصبح القضية الإيمانية في المسيحية ذات بعد تأويلي مرتبط بالفهم في حد ذاته (الدائرة الهرمينوطيقية)، فحياة المسيح وتعاليمه في العهد الجديد عبارة عن إضاءات تلقي بضوئها على النصوص والأحداث في العهد القديم، فالمسيح (ومن خلاله العهد الجديد) يعيد تأويل النصوص التوراتية ويكشف عن معانيها الحقيقية والكاملة التي تختبئ خلف المعاني الحرفية الظاهرة.

غير أن الوضع أكثر تعقيدا إذا ما نظرنا إلى بنية العهد القديم، فاللقاء نظرة على نصوص العهد القديم وبخاصة سفر التكوين نجدها تمتاز بأنها تتقاطع مع مرويّات وأساطير الشرق الأدنى القديم بالخصوص السومرية والبابلية منها كقصة الخلق والطوفان وبرج بابل، ويرى تيار من النقاد بأن مؤلفي العهد القديم «كانوا يعيدون تشكيل المادة التقليدية لكي تتناسب مع مبادئهم الهرمينوطيقية في تفسير النصوص والتي كانت توجهها رؤى لاهوتية مميزة»⁴، من هذا نستنتج بأن نصوص العهد القديم لم تنشأ في فراغ ديني أو ثقافي بل تفاعلت مع التقاليد الأدبية السابقة والمحيط بها مشكلة معها علاقة هرمينوطيقية، إذ قام مؤلفوه بتوظيف المادة الحكائية الموجودة في الأساطير التي كانت منتشرة في الحضارة البابلية وحضارات الشرق الأدنى القديمة من خلال الاقتباس وإعادة الصياغة وتأويلها وفق آلية تسمح بتحقيق غايات لاهوتية محددة تعبر عن العقائد والمبادئ والأخلاق المحورية للثقافة اليهودية التي كانت طور التشكيل آنذاك. هذه العملية التأويلية وإعادة التشكيل ليست مجرد انتقاء للمفاهيم الدينية والأساطير، بل هو تفاعل ديناميكي يقوم بتحويل المعاني أدى في النهاية إلى خلق نصوص تحمل هوية مميزة ومتفردة، وعليه فإن نصوص العهد القديم تتضمن تناسبا مع مرويّات وأساطير من التراث البابلي والمصري القديم يعكس التفاعل مع الثقافات المجاورة وعند تحليل نصوص العهد القديم ومطابقتها مع النصوص البابلية نجد بأن «الطبقة الأقدم للنص، تبقى في كثير من الأحيان قريبة إلى السطح»⁵ حيث تم استعمالها لتملأ الفجوات السردية حين كتابة التوراة وتحويلها لتناسب معتقدات اليهود، فالنصوص القديمة استخدمت كمادة خام تم صهرها وتعديلها في إطار العقيدة اليهودية لسد الفجوات السردية وهو ما يسهل عملية تبنى ونقل الأحداث التاريخية والتعاليم اللاهوتية، وهو ما يكشف عن درجة التعقيد التي تميز تكوين هذه النصوص. فنصوص العهد القديم إذن قراءات تأويلية لتراث إنساني سابق وإعادة تحرير له وهو ما يجعلها قراءة هرمينوطيقية لما سبق من تراث، وأصبحت تلك النصوص مرآة كاشفة للآلية التي استوعبت بها المجتمعات القديمة ودمجت التقاليد والقصص التي ورثتها عبر التاريخ للتعبير عن فهم متجدد ومتطور للإله. وللاشارة إلى أن أهم حلقة من حلقات التثاقف بين العهد القديم والتراث الإنساني السابق تم في الإسكندرية التي «اضطلعت بدور حاسم في تكوين النصوص المقدسة للتراث اليهودي-

المسيحي ونقلها»⁶ أين ظهرت ما تعرف بالنسخة السبعينية المتمثلة في ترجمة العهد القديم إلى اللغة اليونانية.

مثلت عملية الترجمة إلى اللغة اليونانية مرحلة جديدة في تاريخ الكتب المقدسة، فهي الترجمة التي اعتمدتها الكنيسة لأنها سهلت على آباء الكنيسة الاقتباس منه والتعامل مع نصوصه. وفي الاسكندرية في هذا الجو الثقافي المتميز باختلاط الثقافة اليونانية بالثقافة العبرية والشرقية ظهر إلى الوجود العهد الجديد في وسط تَمَيَّزَ «بالتلاقح المتبادل بين اللوغوس الإغريقي وبين الحكمة العبرانية»⁷ مَثَّلَ فيه نص الترجمة السبعينية النص المرجعي للعهد القديم بالنسبة للمسيحيين، كما أن التأويل هو الوجه الآخر له، وهو تأويل قائم على فهم النصوص على أسس معرفية جديدة تستند إلى ما قدمته الفلسفة الرواقية والأفلاطونية المحدثة من جهة، وعلى أساس القيم الجديدة التي جاء بها المسيح الذي يعد أول من أقام علاقة هرمينوطيقية مع العهد القديم.

وإذا كانت نصوص العهد القديم تتشكل في إطار العلاقة التي تربطها بنصوص وأساطير الشرق الأدنى القديمة، فإن نصوص العهد الجديد تقوم على أساس علاقتها مع التراث الهيليني، «حيث أصبح التميز أو التصوير فيما بعد - في التأويل الهوميري الذي طورته الهيلينية خصوصا مع الرواقية- طريقة تأويل عالمية في تناول الجميع، بما فيها هرمينوطيقا الآباء التي لخصها كل من أوريجينوس وأوغسطين»⁸، فقد ظهر العهد الجديد في بيئة تميزت بالانتشار الواسع للثقافة الهيلينية، لذلك فقد تأثرت نصوصه بالتراث الهيليني والفلسفة الرواقية التي قدمت طرقا عقلانية وأخلاقية للتفكير في العالم أثرت بشكل مباشر في كيفية تفسير النصوص الدينية. لقد أسهمت التفسيرات الأدبية الرواقية في تطوير أساليب التأويل التي سعت للبحث عن معاني أعمق للنصوص القديمة. وقد مثل بولس الرسول حلقة الوصل بين الهيلينية والعهد الجديد، وكان دوره يتمثل في «أن يفتح الوحي اليهودي-المسيحي على التراث الفلسفي والشعري للعصر القديم الكلاسيكي»⁹ وهذا العمل من شأنه أن يجعل التراث الهيليني السابق ملحقا بالديانة المسيحية، فبفضل خلفياته الفريدة (اليهودية-الهيلينية) تمكن بولس من توسيع نطاق الرسالة المسيحية خارج دوائر اليهودية، فقد استخدم

بولس التعاليم الفلسفية الهيلينية مثل المنطق والخطاب الإقناعي، وعليه جعل بولس التراث الهيليني رافدا يخدم تعاليم العقيدة المسيحية.

إن هذه البنية المعقدة للنصوص المقدسة في الثقافة الغربية جعلت مسألة الفهم والتأويل في غاية الأهمية ومسألة إشكالية في الفكر الغربي، كون عملية التأويل هي التي تمكن من الحفاظ على العقيدة وتسمح بالإجابة على مختلف الأسئلة التي تتبادر إلى الذهن خلال عملية القراءة، كما يسمح التأويل بإزالة الغموض عن النص المقدس، كما تجعل العلاقة المعقدة بين العهدين وبين التراث الإنساني المصاحب لهما والسابق عليهما عملية القراءة تحدياً تأويلياً بالنسبة للهرمينوطيقي الذي يحتاج إلى إحداث رابطة بين العقيدة وبين مضمون النصوص المقدسة على اختلافها.

3. أثر الفلسفة اليونانية على الاتجاهات التأويلية:

امتد الفكر اليوناني إلى تأويل الكتابات المقدسة منذ القرون الأولى للمسيحية، وكان له بالغ الأثر في تشكل وظهور المدارس التأويلية المختلفة للكتاب المقدس منذ القرنين الأول والثاني للميلاد، وللإشارة فإن بولس الرسول أول هرمينوطيقي استعان بالثقافة اليونانية لفهم النص المقدس حين ابتدع المجاز كآلية لفهم معاني الكتاب المقدس، خاصة في تأويله لزوجتي إبراهيم سارة وهاجر في رسالته إلى غلاطية.

ويعد القرن الثاني ميلادي عصر المدارس التأويلية للكتاب المقدس بامتياز، حيث ظهرت مدرستان كبيرتان تضمان داخلهما ثلاثة اتجاهات تأويلية كبرى، وتمكنت هذه المدارس من إحداث نقلة نوعية من حيث التعامل مع نصوص الكتاب المقدس وانتهت بتأسيس قانون الإيمان الذي حقق مصداقية التفسير المسيحي للكتاب المقدس مع القديس أوغسطين.

1.3 مدرسة أنطاكية:

تبنت مدرسة أنطاكية منهج التأويل الحرفي للكتاب المقدس مستلهمة أفكارها ومبادئها من فلسفة أرسطو العقلانية بالإضافة إلى تأثرها بمنهج الرابينيين اليهود (كبار الأحرار والمعلمين اليهود) في تفسير العهد القديم، ولم تكن هذه المدرسة مدرسة بالمعنى الحرفي

للکلمة بقدر ما كانت تمثل تيارا خاصا في الدراسات اللاهوتية وفي القراءة التأويلية للكتاب المقدس ارتبط اسمها بمدينة أنطاكية.

يظهر تأثير أرسطو على هذه المدرسة جليا في اتباعها منهج التفسير اليهودي المحلي القائم على القراءة الحرفية للنص المقدس بحيث «مالت تجاه الواقع المادي والتاريخ، ورفض التفسير الرمزي للنصوص الكتابية»¹⁰ فمدرسة أنطاكية تبحث عن المعنى في التاريخ والأحداث التاريخية المرافقة لتشكل النص المقدس، معتمدة على التفسير المباشر والواقعي مركزة على ضرورة فهم الرسالة ضمن الأطر الواقعية. لذا كان تركيز هذه المدرسة على المعنى الحرفي **فتيودور القورشي (350-428م)** وهو أحد قراء هذه المدرسة يرى بأن فكرة المعاني المختبئة في النص مرفوضة وأن النص المقدس كتاب واضح ومفتوح لكل المهتمين بقراءته حيث صب اهتمامه على المعاني الحرفية والنحوية للنص¹¹.

لقد ركز رواد هذه المدرسة على إبداء آرائهم في بعض الأسفار والنصوص الواردة في العهد القديم معتبرين إياها أسفارا بشرية مملوءة بالحكمة التاريخية، فعمق المعنى عندهم يكمن في الحرف والتاريخ معتبرين بأن المعنى الرمزي الذي تتادي به مدرسة الإسكندرية لا يمكن أن يتجاوز الحرف أو يستقل عنه، وفي منظور هذه المدرسة فإن بولس الرسول استخدم «الرموز كأمثلة لكي يقارن ما كان في الماضي مع ما هو الآن في العهد الجديد»¹². وقد أدان رواد هذه المدرسة علماء الإسكندرية في محاولتهم قراءة العهد الجديد من خلال العهد القديم واعتبروا بأنهم أخفقوا في فهم النص المقدس باعتباره مجموعة من الحقائق التاريخية واللغوية، كما أن تأويلهم الرمزي للنص يفتح المجال أمام البدع ولا نهائية التأويل وفوضى القراءة وهو ما يؤدي في نهاية الأمر إلى «تحطم المستوى التعبيري الخطي وتشتت المعاني والدلالات فاقدة توافمها الأصلي وتدخل عليها دلالات جديدة إلى ما لا نهاية»¹³.

2.3 مدرسة الإسكندرية:

في مقابل التأويل الحرفي لمدرسة أنطاكية تظهر مدرسة الإسكندرية التي تبنت التأويل الرمزي المجازي للنص المقدس، حيث شددت على الاختلاف بين الحرف والروح، في الوقت الذي طابقت بينهما مدرسة أنطاكية، فكل عقائد الكنيسة يمكن تفسيرها على ضوء

نصوص العهد القديم، وقد قامت هذه المدرسة على أساس فلسفة أفلاطون، وتعد هذه المدرسة الوريث الشرعي للفلسفة والثقافة اليونانية ككل، حيث تأثر أغلب منتمي هذه المدرسة بالثقافة الهيلينية وحاولوا ربط الكتاب المقدس بها -وهو ما سبق أن وضحنا جانباً منه في العنصر السابق-. ويعد الفكر الأفلاطوني المحدث والفلسفة الرواقية التي استلهم منها الهرمينوطيقي اليهودي فيلون الإسكندري مفهومه للمجاز الدعامة الأساسية لهذه المدرسة وهو المفهوم الذي استعان به المفسرون الأوائل ككليمينز الإسكندري^{***} وأوريجانوس وهما الشخصيتان اللتان تركتا أثراً كبيراً على الفكر اللاهوتي المسيحي.

تعامل مدرسة الإسكندرية النص المقدس على أنه مركب من لغة رمزية مجازية فكل عباراته تحتوي على معنى باطن يجب على المفسر بلوغه حتى يتحقق الفهم الصحيح للنص، والذي يتجلى باستخراج مختلف المعاني المضمرّة فيه. ويقوم هذا المفهوم على أساس الفكر الأفلاطوني الذي يرى بأن إدراك الحق المطلق الموجود في عالم المثل والأفكار يكون بالعقل أكثر من إدراكه بالحس، وبالتالي نقل قيمة التاريخ في هذه المدرسة والأولوية فيها لـ «تفسير الأحداث التاريخية عن طريق تمييز مفهومها الروحي أو مغزاها العميق»¹⁴ إن هدف هذه المدرسة هو إدراك المعنى الخفي المستتر وراء الحرف المكتوب ووراء التاريخ فالأشياء تحدث لغاية ما وعلى المؤول أن يصل إلى المعنى العميق المختبئ وراءه.

يعد كليمينز الإسكندري أول هرمينوطيقي في هذه المدرسة وأول من تبنى التفسير الرمزي فيها مستلهماً ذلك من منهج التأويل المجازي عند فيلون الإسكندري الذي قرأ العهد القديم بعيون الفلاسفة اليونان السابقين عليه وحاول التوفيق بينهما، نظراً لأن السجال في عهده كان بين المؤمنين وبين الوثنيين الذين لهم تاريخهم العقائدي والفكري الخاص بهم وهو ما حتم على فيلون الإسكندري أن يتجه نحو أبجديات القراءة الرمزية ليحدث التوافق بين النص وبين الفكر الإنساني السابق عليه.

نفس العمل قامت به مدرسة الإسكندرية فقد كان روادها في مواجهة الهراطقة والوثنيين بالإضافة إلى نشر المسيحية بين شعوب العالم المعروف آنذاك، فالتفسير الرمزي أو الروحي هو القادر على إخراج المسيحية من قوقعة اليهودية ومضاهاة الأمم الأخرى.

4. قانون الإيمان ومعاني الكتابة في النصوص المقدسة:

فتحت مدرسة الإسكندرية الباب واسعا أمام الممارسات الهرمينوطيقية لقراءة النص المقدس، وأصبح تأويل النص المقدس وفهمه إشكالية في حد ذاتها من خلال مفهوم التأويل المجازي، ومن أجل تجنب السقوط في فخ فوضى القراءة ولا نهائية التأويل صاغت الكنيسة قانون الإيمان الذي ينص على أن التأويل المجازي للنص لا بد أن يكون خادما للهدف العام للكنيسة وهو ما يحدد فعالية العمل التأويلي وبهذا «أبقت الكنيسة لنفسها سلطة الوصاية على التأويلات، إذ لا يمكن بحال تجاوز الدائرة التأويلية التي أرساها العارفون في العقيدة»¹⁵، في ظل هذه الوصاية على النص المقدس التي فرضتها الكنيسة لا يحق لأي كان خارجها استخدامه ومن ثمة تأويله وهو القانون الذي اشتهر به القديس أوغسطين بصياغته صياغة نهائية، فعلى المفسر أن يصلي قبل الشروع في عمله التأويلي للنص ومن شأن الصلاة أن تجعله في علاقة مع الرب توجهه أثناء عملية التفسير بما يوافق تعاليم الكنيسة.

في ظل هذا القانون الذي صاغه الآباء الأوائل سار التأويل المجازي واكتسب مصداقيته أكثر، فحلول الأزمات اللاهوتية تكمن في سمو المعنى عن الحرفية والتاريخية وارتباطه بالروح والرمزية وفي ظل هذا القانون كذلك اشتغل التأويل التيبولوجي للنصوص وهو أسلوب تأويلي يعمل على إبراز التطابق بين العهدين، وهو يقوم على مبدأ المثال والنموذج معتبرا بأن ما يرد في العهد القديم هو عبارة عن نموذج تأويلي لما يرد في العهد الجديد «فشخصيات الإنجيل العبري كانت تتصور بأنها ممهدة لأشخاص وأحداث العهد الجديد»¹⁶، ويمتاز هذا النموذج التأويلي بأنه يعتبر المسيح مركز الأحداث التي يتناولها العهد القديم باعتبارها إشارات لقومه وتحقيق رسالته في الأرض، وقد برع بولس الرسول في هذا النوع من القراءة المجازية التأويلية.

وكما أشرنا سابقا فقد أثرت الفلسفة اليونانية في تأويل الكتاب المقدس، حيث لجأ أوريجانوس إلى الفلسفة لتساعده على محاربة الحركات الوثنية فالإسكندرية كانت عاصمة للديانة المسيحية من جهة ومعقلا للصراع الفكري والعائدي بين المؤمنين والوثنيين، ففي كتابيه "في المبادئ" و"الرد على كلسس" الذي أنكر أحداث العهد القديم وشخصياته، دافع أوريجانوس عن الإيمان المسيحي مستعينا في ذلك بفلسفة أفلاطون والمنهج المدرشي اليهودي اللذين

ساعده فيما بعد على تأسيس نظريته في المعاني الثلاثة للكتابة المقدسة التي صاغها في كتاب "في المبادئ"، ففيه انطلق من أنّ «الكون كله مليء بالرموز وأنواع العالم غير المرئي، وأن كل الأشياء لها جانبان، واحد ظاهر وواقعي وهو متوفر لدينا جميعا، والآخر روحي عرفاني معروف فقط للشخص الكامل»¹⁷ وهو يقصد بالشخص الكامل العارف الذي ارتقى في سلم العرفان الروحي وتلقى أسرار الغنوصية**** وبالنظر إلى قانون الإيمان فإن العارف لا بد أن يكون شخصا من داخل الكنيسة.

إلى جانب العالم الرمزي يوجد المتلقي للنص، وفي قراءته لآليات التلقي يرى أوريجانوس بالمبدأ الذي ذهبت إليه الحركات الغنوصية المهرطقة في الديانة المسيحية والتي تقسم الناس إلى ثلاثة أنواع باختلاف طبائعهم، فمنهم الجسدانيون الذين تحركهم الشهوات والغرائز، والنفسانيون الذين تحركهم علة الحياة والنفس، وأخيرا الروحانيون الذين تلقوا الغنوسيس أو المعرفة وهم الذين يدركون أصولهم السماوية، ومن هذا التقسيم لطبائع البشر وإقراره بالطبيعة الرمزية للكون ومنه للنصوص المقدسة، يقدم أوريجانوس مراحل التفسير الثلاثة وهي:

- أ- المعنى الحرفي التاريخي: وهو المقابل لطبع الجسدنة، وهو موجه لعامة الناس.
- ب- المعنى النفسي الأخلاقي: وهو يمثل المرتبة الثانية من مراتب الفهم، ويقابل طبع النفسانية، ويصل إليه المفسر بعد أن يقوم من قراءة النص حرفيا وإدراك معانيه.
- ت- المعنى الرمزي أو الروحي: وهو آخر مراتب المعنى في النصوص المقدسة ويقابل طبع الروحانية ويمثل درجة العرفان.

كل مرحلة من مراحل الفهم عند أوريجانوس تحيل إلى أخرى ولا يصل المفسر إلى إدراك المعنى الروحي الرمزي في الكتابة المقدسة إلا بعد إدراكه للمعاني الأخرى السابقة ويتدرج فيها.

5. الخاتمة:

التأويلية في الثقافة الغربية ميدان متعلق بفهم وتفسير الكتاب المقدس، نظرا للبنية الخاصة التي يتمتع بها العهد القديم والعهد الجديد حيث أرست مدرسة الإسكندرية خاصة معالم الفكر التأويلي الذي أثر لاحقا على الفكر الإنساني بصفة عامة، فتمت صياغة أول القوانين التأويلية في ظل الصراع اللاهوتي والديني الذي كان قائما بعد ظهور المسيح.

إن أهم ما نخرج به من هذا المقال يتمثل في أن البنية الخاصة التي تمتع بها النص المقدس في التراث اليهودي المسيحي جعلت من عملية تأويله إشكالية حقيقة حاول الفكر اليهودي المسيحي معالجتها من خلال وضع معايير هي التي حددت أنماط قراءته وتأويله، فالتأويل الغربي نشأ وتبلور بفعل التفاعل بين هرمينوطيقي الكنيسة الأوائل والنص، بالإضافة إلى أن نصوص العهدين تتمتع ببنية خاصة، ولا يصح في رأينا أن تطبق مثل تلك الأفكار التأويلية على نصوص دينية أخرى في عقائد أخرى كون نصوصها تتمتع بفردانيته التي قد لا تتناسب والقوانين التأويلية الغربية.

إضافة إلى ذلك فقد تأثرت المدارس التأويلية المسيحية الأولى بالفكر اليوناني، واستندت إليه أثناء محاورتها للنصوص المقدسة، خاصة فكر أرسطو وأفلاطون والمدارس الهيلينية المتأخرة جعلت الممارسة التأويلية امتدادا للفكر اليوناني القديم. وخوفا من انفلات الأوضاع فقد ارتأت الكنيسة أن تسطر قانون الإيمان الذي تحمي بواسطته نصوصها من فوضى القراءة ولا نهائية التأويل خاصة وأن النصوص في حد ذاتها تتناقض مروياتها أحيانا وتتقاطع أحيانا أخرى.

إن أهم توصية يخرج بها هذا البحث تتعلق بضرورة التوسع في الحفر في المشاريع التأويلية الغربية وإعادة قراءتها في جذورها قبل استيرادها جاهزة إلى مجالنا الثقافي والديني، بحيث قد لا تتوافق بعض الأدوات المنهجية التي تم تناول النصوص المقدسة في التراث الثقافي الغربي بها مع طبيعة نصوصنا الدينية والتي قد تفقدنا نحن كذلك إلى ابتعاد الفهم عن المعنى الأصلي ونتيه بنا في قراءات مغلوبة للنص.

6. قائمة المراجع:

- 1- الأب فاضل سيداروس اليسوعي، مدخل إلى رسائل القديس بولس، 2003، ط 02، بيروت، لبنان، دار المشرق.
- 2- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، 2001، ط 02، بيروت، باريس، لبنان، فرنسا، المجلد 02 H-Q، منشورات عويدات.
- 3- بول ريكور، صراع التأويلات: دراسات هيرمينوطيقية، تر: د. منذر عياشي، مراجعة: د. جورج زيناتي، 2005، ط 01، بيروت، لبنان، دار الكتاب الجديدة المتحدة.
- 4- جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، ط 03، يوليو 2006، بيروت، لبنان، دار الطليعة.
- 5- جورج عوض إبراهيم، تفسير الكتاب المقدس عند آباء الكنيسة، أغسطس 2012، ط 01، مصر الجديدة، مصر، جي سي سنتر.
- 6- جورج غوسدورف، أصول التأويلية، تر: فتحي إنقزو، مراجعة: محمد أبو هاشم محجوب، 2018، ط 01، الرباط، بيروت، المغرب، لبنان، مؤمنون بلا حدود والمركز الثقافي للكتاب.
- 7- دافيد جاسبر، مقدمة في الهرمينوطيقا، تر: وجيه قانصو، 2007، ط 01، بيروت، الجزائر، لبنان، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف.
- 8- سالم شريف حامد، نقد العهد القديم: دراسة تطبيقية على سفر صموئيل الأول والثاني، 2011، ط 01، القاهرة، مصر، مكتبة مدبولي.
- 9- عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة: نحو مشروع عقل تأويلي، 2008، ط 1، بيروت، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف.
- 10- نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، 2014، ط 01، الدار البيضاء، بيروت، المركز الثقافي العربي ومؤمنون بلا حدود.
- 11- هانس غيورغ غادامير، فلسفة التأويل: الأصول، المبادئ، الأهداف، تر: محمد شوقي الزين، 2017، ط 03، بيروت، الجزائر، الرباط، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان.

7. الهوامش:

* - التأويلية أو الهرمينوطيقا: مصطلح يقصد به تفسير نصوص فلسفية أو دينية، وبنحو خاص الكتاب المقدس، وهو يشير إلى مجموعة القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني. ينظر: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، 2001، ط2، بيروت، باريس، لبنان، فرنسا، المجلد 02 H-Q، منشورات عويدات، ص555. وينظر كذلك: نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، 2014، ط01، الدار البيضاء، بيروت، المركز الثقافي العربي ومؤمنون بلا حدود، ص13.

** - بولس الرسول Saint Paul أو Paul de Tarse: أحد أعمدة الديانة المسيحية، ولد في طرسوس حوالي سنة 5م يهودي ينتمي إلى الفريسيين المحافظين على تطبيق الشريعة، اشترك في شبابه في اضطهاد المسيحية، تنصر سنة 35م بعد أن وقعت له حادثة غيرت مجرى حياته، يروى بأنه ظهر له المسيح وهو في طريقه إلى دمشق لاضطهاد أتباعه. كانت ثقافته يهودية على نهج الرابينيين اليهود (المعلمين والأحبار اليهود)، أتقن اليونانية وتأثر بالثقافة الهيلينية، وهو الذي تمكن من إلحاق الثقافة الهيلينية بالمسيحية، فقد أخرج المسيحية من بوتقة الشريعة الموسوية وفتحها على الثقافات الأخرى خاصة اليونانية. ينظر: الأب فاضل سيداروس اليسوعي، مدخل إلى رسائل القديس بولس، 2003، ط2، بيروت، لبنان، دار المشرق، ص8-10.

1- سالم شريف حامد، نقد العهد القديم: دراسة تطبيقية على سفر صموئيل الأول والثاني، 2011، ط01، القاهرة، مصر، مكتبة مدبولي، ص70.

2- بول ريكور، صراع التأويلات: دراسات هيرمينوطيقية، تر: د. منذر عياشي، مراجعة: د. جورج زيناتي، 2005، ط01، بيروت، لبنان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، 439.

3- نفسه، ص439.

4- دافيد جاسبر، مقدمة في الهرمينوطيقا، تر: وجيه قانصو، 2007، ط01، بيروت، الجزائر، لبنان، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ص51.

5- نفسه، ص49.

6- جورج غوسدورف، أصول التأويلية، تر: فتحي إنقزو، مراجعة: محمد أبو هاشم محجوب، 2018، ط01، الرباط، بيروت، المغرب، لبنان، مؤمنون بلا حدود والمركز الثقافي للكتاب، ص68.

7- نفسه، ص69.

⁸ - هانس غيورغ غدامير، **فلسفة التأويل: الأصول، المبادئ، الأهداف**، تر: محمد شوقي الزين، 2017، ط3، بيروت، الجزائر، الرباط، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان، ص 67. **أوريغانوس: Origène أو Origen**: لاهوتي يوناني ولد سنة 185م في الإسكندرية وتوفي سنة 252م أو 253م ربما في صور كانت أسرته نصرانية، اشتغل في بداية مسيرته العلمية كأستاذ للنحو والصرف، ثم التحق بأسقف الإسكندرية واشتغل بالتعليم الديني. أسس مركز التعليم العالي "ديداكاليون" الذي يهتم بتعليم جميع فروع الثقافة الدنيوية تتوجها دراسة الكتاب المقدس. اهتم بالفلسفة الأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة. ألف عدة كتب في المسيحية منها رسالته **"في المبادئ"** وكتاب **"الرد على كلسس"**. ينظر: جورج طرابيشي، **معجم الفلاسفة**، ط 03، يوليو 2006، بيروت، لبنان، دار الطليعة، ص 113-114. **أوغسطينوس Saint Augustin**: أشهر آباء الكنيسة اللاتينية، ولد في طاجسطا سوق أهراس حاليا في 13 تشرين الثاني 354م ومات في إيبونا في 14 آب 430م كان أبوه وثنيا وأمه نصرانية، جرس أولا في مسقط رأسه ثم انتقل إلى مادورا ليدرس الخطابة، كان مولعا باللاتينية والأدب اللاتيني. كان في بادئ أمره وثنيا على دين والده وعاش حياة منحلة أورتته الندم لاحقا، تعمد سنة 287م وارتقى في سلم الرهبانية في المسيحية إلى أن أصبح أسقف هيبونيس. ألف كتبا عدة أشهرها **"الإعترافات"**، **"في الثالث"** **"مناجاة النفس"**. ينظر: جورج طرابيشي، **معجم الفلاسفة**، مرجع سابق، ص 117-122.

⁹ - جورج غوسدورف، **أصول التأويلية**، مرجع سابق، ص 80.

¹⁰ - جورج عوض إبراهيم، **تفسير الكتاب المقدس عند آباء الكنيسة**، أغسطس 2012، ط01، مصر الجديدة، مصر، جي سي سنتر، ص 44.

¹¹ - ينظر: دافيد جاسبر، **مقدمة في الهرمينوطيقا**، مرجع سابق، ص 62. **تيودور القورشي Théodore De Cyr**: لاهوتي مسيحي ولد في أنطاكية بين 386م و 393م وتوفي في قورش بين 452م و 458م شغل منصب أسقف أنطاكية ثم قورش، أدت مناصرته لنسطور إلى خلع في مجمع أفسس عام 449م، وأعيد إلى منصبه بحكم من مجمع خلقيدونية سنة 451م بعد أن أنكر نسطور. ينظر: جورج طرابيشي، **معجم الفلاسفة**، مرجع سابق، ص 252.

¹² - جورج عوض إبراهيم، **تفسير الكتاب المقدس عند آباء الكنيسة**، مرجع سابق، ص 52.

¹³ - عبد الغني بارة، **الهرمينوطيقا والفلسفة: نحو مشروع عقل تأويلي**، 2008، ط1، بيروت، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ص 163.

^{***} - **فيلون الإسكندري Philon D'Alexandrie**: ولد في الإسكندرية سنة 20 ق.م يمثل نقطة التقاطع بين الفكر العبري والفكر اليوناني، فيلسوف وأحد رواد الأفلاطونية المحدثة، صاحب نظرية في التأويل المجازي لنصوص العهد القديم. ينظر: جورج طرابيشي، **معجم الفلاسفة**، مرجع سابق، ص 490-491.

كليمنضس الإسكندري Clément D’Alexandrie: اسمه تيتوس فلافيوس كاتب يوناني مسيحي ومن فقهاء الكنيسة ولد في النصف الثاني من القرن الثاني ميلادي، وهو أحد أبرز وجوه الأدب اليوناني المسيحي خلف بانتانوس أستاذه في إدارة الديداسكاليون بالإسكندرية وأكسبها مزيدا من الشهرة. سعى إلى التوفيق بين الفلسفة والعقيدة المسيحية وهو أستاذ أوريجانوس. ينظر: جورج طرابيشي، **معجم الفلاسفة**، مرجع سابق، ص 526-527.

¹⁴- جورج عوض إبراهيم، **تفسير الكتاب المقدس عند آباء الكنيسة**، مرجع سابق، ص 42.

¹⁵- عبد الغني بارة، **الهرمينوطيقا والفلسفة** : ص 163.

¹⁶- دافيد جاسبر، **مقدمة في الهرمينوطيقا**، مرجع سابق، ص 53.

¹⁷- نفسه، ص 61-62.

**** - الغنوصية : أو العرفان مفهوم بمعنى العلم والحكمة، يقصد بها مذهب يطمح إلى التوفيق بين كل الديانات وتفسير معناها العميق بواسطة المعرفة الباطنية والكاملة للأمور الإلهية التي يمكن تناولها بالتراث وبالتلقين. ينظر: أندريه لالاند، **موسوعة لالاند الفلسفية**، المجلد 02، مرجع سابق، ص 467.